تمهيد شخصى

لست مؤرخًا ، ولكنى أعشق التاريخ ، قراءته عندى معايشة له . تاريخ بلادى توكيد لشخصيتى ، والتاريخ الإسلامى توكيد لإيمانى ، والتاريخ العام توكيد لرفقة الإنسان ، تجذبنى فى كل هذه التواريخ حقبات اليقظة ، التى تدفع الإنسان فى مراقى الحضارة دفعًا ، بالفكر والإحساس ، وإعمال كافة الحواس . قد يبلغها بالثورات ، وقد يحققها بالسلام . قد ينتشر فكره الجديد انتشار الضياء ، وقد ينتقل بالغزو ، وهو شر يطوى الخير ، فينتقل هذا غصبًا عنه .

يقظة الشعوب هى التى تعنينى ، أيًا كان مصدرها . يعنينى ما نقلته الحروب الصليبية من الحضارة الإسلامية إلى الغرب . وما أفاده الشرق الأوسط منها . ما كسبه العرب من الروم (بيزنطة) ، ومن الفرس ، ومن الهند . وما نقلته الفتوح الإسلامية إلى صقلية . وشبه جزيرة إيبريا إلى أوربا . وفضل الثورة الفرنسية على الدنيا . فكانت مصدر الخير الذى خرج من شر الغزو الفرنسى بقيادة نابليون

بونابرت . فالحرية التى نشرتها تلك الثورة فى العالم هى أيضًا ، بنت عصر الإرهاب اليعقوبى .

وفى التاريخ حضارات أصيلة تمثل يقظة الإنسان بحكم إنسانيته ، وقدراته العقلية والشعورية . حضارات «الشرق الأدنى» : فى وادى النيل ، وبلاد الرافدين ، وحضارة اليونان . وحضارات آسيا : فارس ، والهند ، والصين . ثم الحضارات التى نزلت بها الكتب السماوية الثلاثة .

وبنفسى أتحدث عن حضارة «الرينسانس» ، أو ما ننعته بكلمتين : عصر النهضة ، أو عصر الإحياء . وهى حضارة نشأت فى الدويلات الإيطالية ، فكانت نتاجًا عجيبًا من مسيحية العصر الوسيط ، ومن العودة إلى حضارة الإغريق ، وإحياء حضارة الرومان ، ومما استألفته من الحضارة الإسلامية . لا أكتبها لمجرد ناقل من أعلام الكتب التى أرخت لها ، وإنما كقارئ رأى ووعى ما جاء بتلك الكتب ، بعد جولاتى فى بلاد نشأتها ، وقد شاهدت آثارها وقرأت بعض آدابها ، وتمتعت بكل مظاهر فنونها .

ولقد فاضلت بين ما قرأت من مؤلفات عنها ، وأشهد بأن كتاب السويسرى من مدينة «بازل» أو (بال) يعقوب بوركارت : «حضارة الرينسانس فى إيطاليا» هو أشهرها ، ومن أقدرها على النفاذ إلى أصولها ، فاتخذته قائدًا لتحرير بعض هذه الفصول التى تؤلف كتابًا عربيًا صحيحًا ، أرجو له إذا ما تم أن يقوم بدور الدليل

العقلانى إلى تلك الحضارة ، يضىء لنا جميعًا سواء السبيل فيما أعتبره أساسًا لا غنى عنه لمن يتلمس طريقًا يُبلِّغه معنى الحضارة إطلاقًا ، فهى فكر وفن وعلم ، وتفتح لاكتشاف المعمورة دنيا ، والإنسان روحًا وجسدًا ، والجماعات إدارة وسياسة ، واقتصادًا وتجارة .

قسَّم بوركارت كتابه ستة أقسام ، هذه رءوس موضوعاتها :

- الدولة كعمل فنى
- نمو الفرد
- إحياء الحضارات القديمة
- اكتشاف الدنيا واكتشاف الإنسان
- المجتمع واحتفالاته وأعياده
- الدين والأخلاق .

وإذ أبدأ بنمو الفرد فلأن عنوان حضارة الرينسانس هو إنسان متفتح العقل والشخصية ، يطرق مجالات المعرفة بمقدرات البشر ، وإنجازاته فى الفكر والفن والعلم والأدب . وتتلقانا هنا ظاهرة مشابهة فى أوج الحضارة العربية ، إذ يتجه فكرنا تَوًّا إلى أبناء سينا ورشد والهيثم وخلدون ، وإلى أبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى . وهى شخصيات موسوعية ، إنْ تخصصت فى باب من أبواب المعرفة ، فإن اتساع ذهنها ، وامتداد بصرها ، يصلها بشتى فنون المعرفة ، وعلومها وآدابها .

وأستأذن هنا فى سرد ظرف شخصى وهو الدافع إلى اعتزامى

وضع هذه الفصول . فهى مهداة مقدمًا إلى روح الطبيب المصرى العلامة ، والمفكر العربى الأصيل المرحوم : الدكتور محمد كامل حسين فهو الصورة التى تكشفت لى فى منتصف عمره وعمرى ، ممثلة للشخصية الجذرية فى حضارة العرب ، وفى حضارة الرينسانس .

وقد احتفل «الاتحاد العلمى المصرى» فى الشهر الأخير من سنة ١٩٧٧ ، عام وفاة كامل حسين (فى شهر مارس) بإحياء ذكراه . وكان علىّ فى هذا الاحتفال أن أتحدث عن محمد كامل حسين ، الإنسان الذى يمثل «الهيومانزم» فى عصرنا ، أصدق تمثيل .

اتجهت فى إعلام خطابى إلى «عصر الإحياء» بحثًا عن نموذج فردى يضاهى كامل حسين . وعندما وقع اختيارى على هذا النموذج ، عثرت على وصف شاعر كبير صديق معاصر له ، هو «بوليتسيانو» ، شاعر بلاط «لورنتسو» الأفخم ، أمير فلورنسا فى أزهى حقبات عصر «الرينسانس» . فترجمت هذا الوصف بتصرف مقصور على إخفاء بعض المعالم التى تكشف عن الشخص الموصوف فى الأصل الإيطالى . فيحسب المستمع المصرى العارف بكامل حسين أنه وصف له :

«كان ألمع الشخصيات فى المجتمع . شخصيته الجذابة شبت ونمت على المعرفة . وبدافع عقله اليقظ تابع الدراسة من باب إلى آخر ، وحقق امتيازًا ملحوظًا فى الشعر والأدب . والفلسفة ، والعلم . وصفه شاعر من معارفه بأنه نموذج مثالى ، وهبته الطبيعة كل

عطائها . . . رجل مكب على الدرس بلا معاناة ، صاحب ذاكرة عجيبة ، وثقافة بارحة الجنبات ، متمكن من لغته ، فهو علم فيها ، متضلع فى لغات أخرى . دماثة الخلق فى طبعه ، متفتح العقل لكل فلسفة ، وكل دين . لا يرفض نظامًا عقلانيًّا ، مع أنه المتصوف بقلبه وكيانه ، دون تقبل الغيبيات الشعبية . يعطف على الفلسفة الاسكولائية ، وهذا غير معهود فى أنداده ، متبحر فى الفكر العربى ، ومنتظر على الفكر العبرانى . لا أثر لتعصب فى تفكيره ، ولا فى علاقاته . طالع الأناجيل وأسفار «العهد القديم» ، وتدارس الديانات المقارنة ، وجمع فى وحدة معارفه الموسوعية ، والمسيحية ، وضم إليها الأفلاطونية .

« وعلى الرغم من الاحترام والتبجيل الذى يقابل به فى كل موضع ، فقد احتفظ بتواضعه ، إلا فيما يمس دقة تفكيره ، وصحة علمه ، أوخط عن قرب أوبعد ، بقيمة العقل والحكمة » .

والموصوف بهذا فى الأصل هو : الكونت چوڤانى پيكوديلاّ ميراندولا . كان عضوًا بأكاديمية أفلاطون بفلورنسا ، وهى تجمع الدارسين للحوار الأفلاطونى : مارسيليو فلشينو ، مترجم أعمال الفيلسوف اليونانى الأعظم ، إلى اللغة اللاتينية . والشاعر بوليتسيانو ، وسيد الفنانين ميكلانجلو بونارّوتى ، ومنشئ الأكاديمية ، الشاعر الرعوى ، أمير فلورنسا ، لورنتسودى ميديتشى الأفخم .

كان پيكوديلاّ ميراندولا الشخصية الساحرة فى الأكاديمية .

درس فى جامعتى بولونيا وباريس ، واستقبل بحفاوة فى بلاطات أوربا ، ثم استقر فى فلورنسا بطلب الأمير المديتشى . عالج الشعر والفلسفة والعمارة والموسيقى . وصفه الشاعر بوليتسيانو : طويل القامة ، وسيم الطلعة ، وضاؤها ، قوى الذاكرة ، موسوعى الثقافة ، عارف بلغات كثيرة ، حَفِيٌّ بالنساء والفلاسفة ، كريم الخلق ، بارز فى كل ما يتسم بالعقل ، عقله متفتح لكل فلسفة وديانة . . وإليك صفحة من كلام الكونت «پيكوچوقانى ديلا ميراندولا» تدلّ على منزلته :

سوّى الرب الإنسان فى ختام مخلوقاته ، خلقه ليتعرف على قوانين الكون ، فيعشق جماله ، ويعجب بعظمته . لم يربطه بمكان ثابت ، ولا فى عمل بعينه ، أو بضرورات جامدة . ولكنه ، سبحانه ، وهبه الحرية فى إرادته وباطنه .

«قال الرب لآدم ، لقد وضعتك فى وسط الدنيا ، لكى تشرف ، وترى كل ما فيها . لم أخلقك سماويًا ، ولا أرضيًا . لا فانياً ولا خالدًا . لك الحرية لتسوى وتحكم بنفسك . فقد تنحط إلى درجة البهائم ، وقد ترقى إلى الشبه الربانى . فالحيوانات تحمل من أجساد أمهاتها ما يلبث بها طول حياتها . أما الملائكة فهم منذ الخليقة ، أو فى أعقابها على التو ، باقون كما هم إلى أبد الآبدين . لك وحدك النماء ، والتطور حسبما تشاء إرادتك الحرة . لأنك تحمل فى كيانك كل بذور (جراثيم) الحياة الدنيا . . . » .

صفة عامة لعصر الإحياء : اتساع الثقافة ، مما يمهد الطريق إلى التقدم ، ويسمو بالحاسة الفنية للإنسان . . .

عهد الإحياء فى أوربا ظاهرة حضارية تشبه ما حدث فى عهد ازدهار الحضارة العربية ، سواء فى عصر المأمون ، أو بعده فى حضارة الأندلس . لم يقتصر « الرينسانس » على ما يفهم من اسمه ، ومعناه « الميلاد من جديد » . توصيفًا للعودة إلى حضارة الإغريق والرومان . وإنما كان انفتاح الإنسان على نفسه لتحليل ظاهرها وباطنها . وتشوقه إلى استطلاع الكون واكتشافه . وهذه الظاهرة لم يختص بها « الرينسانس » ، ولا عصر المأمون ، أو عصر عبد الرحمٰن الأموى ، صقر قريش ، وإنما هى سمة كل حضارة مزدهرة ، يمكن أن توصف بيقظة الروح والعقل . . . يقول « ول ديورانت » فى مجلده « عصر الإيمان » ، من كتابه : « قصة الحضارة » :

« ارتفاع شأو الحضارة الإسلامية ، وتدهورها ، من المعالم الكبرى فى التاريخ . فلِمَدَى خمسة قرون من سنة ٧٠٠ م حتى سنة ١٢٠٠ م ، قاد الإسلام العالم سؤددًا ونظامًا ، واتساع ملك ، وأسلوبًا فى الحياة رقيقًا مهذبًا . كما قاده فى نماذج المعيشة ومستوياتها ، وفى التشريعات الإنسانية ، والتسامح الدينى ، وفى مجالات الأدب وبحوثه ، وميادين العلوم ، والطب ، والفلسفة . . . » .

وحينما تلمست الشبه بين العالم والطبيب ، والأديب محمد كامل

حسين ، وبين رجل الرينسانس النموذجى ، إنما عنيت تصوير الشخصية الحضارية التى تؤثر فى عصر من العصور ، وتبقى معلمًا من معالمه ، وتشير إلى نهضة أو إحياء . . .

محمد كامل حسين فى القرن العشرين ، مثل بيكو ديلاّ ميراندولا فى القرن الخامس عشر . يمثل عصر نهضة وإحياء بدأ فى منتصف القرن الماضى ، حين كان علمه وشارته ودليله هو رجل الأزهر رفاعة رافع الطهطاوى . وما فتئ هذا العصر يغذ السير إلى الذروة على الرغم مما ابتلى به من حكام ضعاف أو أقوياء ، ولكنهم فى الجريمة سواء : جريمة إهمال شعب خلاق ، صناعته الحضارة ، وتاريخه فى الحضارات لا مع رائع .

المقدمات

١ – عصر الإحياء منارة الحضارة الحديثة

تعمقت دراسة عصر الإحياء ، وهو الموصوف فى اللغات الأوربية باسم «الميلاد من جديد» (الرينسانس) ، وخاصة بعد زيارتى الممتدة لباريس ، اتسعت فيها مراجعى . ولقد سألنى بعض زملائى القدامى هناك عن سر اهتمامى بذلك العصر الأصيل فى حضارتهم .

وإجابتى لا لبسَ فيها ، تتلخص فى إحساسى بأن «عصر الإحياء» بمصر بدأ فى القرن الماضى على يد أعضاء البعثات العلمية إلى باريس ، بعد عودتهم ، وعلى الأخص إمامهم الشيخ العالم رفاعة رافع الطهطاوى . وأحب أن أضيف هنا اسم رجل الدين العظيم الشيخ محمد عبده .

لم أقتصر فى دراستى على الرينسانس ، بل حرصت على مراجعة العصر الوسيط ، وتاريخه يبدأ بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية الغربية بفعل برابرة الشمال الأوربى ، ويتوارى بمطالع «الرينسانس» فى القرن الرابع عشر ، وبازدهاره فى القرنين الخامس عشر والسادس

عشر. ولقد فزعت من طول تخلفنا منذ الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر وكاتب هذا من المؤمنين بأن كانت لعصورنا الإسلامية مشاركة فعالة فى الحضارة العربية – وهذه عندى هى أس البداية ، بل هى الأساس المكين فى العودة لإحياء نهضتنا . بشرط واحد ، وهو أن تتواءم هذه النهضة مع الحضارة الحديثة بكافة وسائلها الفنية والعلمية والاجتماعية .

وهناك رأى للمؤرخين المحدثين – وخاصة من مؤرخى العصور الوسطى – يعترضون فيه على وصفها بعصور الظلام ، وتحت نظرى فى هذه اللحظة كتاب تاريخ مدرسى للمرحلة الثانوية بفرنسا ، ولم أعثر فيه على ما يقابل كلمة «دارك» (مظلم) استعمالاً لها فى وصف «العصر الوسيط» عند الفرنسيين . والكتاب المدرسى يضع تقسيمًا للتاريخ منذ نهاية العصور الكلاسيكية القديمة : «**العصر الوسيط**» هو عصر الإقطاع وبعنى التقطيع السياسى والأرضى إلى أقصى حد . . . ويبدو أن شارلمان فى عام ٨٠٠ وفق فى توحيد إمبراطوريته ، ولكنها تقطعت بعد وفاته ، إلى نظام الحكم «الفيودالى» (الإقطاعى) .

وفى نهاية القرن الخامس عشر تبدأ «**العصور الحديثة**» بالاختراعات الكبيرة كالمطبعة ، واكتشاف قارات جديدة عبر الأقيانوس الاطلنطى ويحرر «الرينسانس» النفوس من الإجبار والخضوع والتشويش والجهالة .

وفى ختام القرن الثامن عشر تحدد الثورة الفرنسية مطالع «**العصر الحاضر**» : الحريات السياسية والمساواة أمام القانون ، وحكم الشعب .

٢ – متشابهات سطحية

أحدث ما بين يدى من كتب متخصصة صدر ضمن سلسلة يديرها الأستاذ زيمون بلوك تحت اسم «مجموعة تواريخ الحضارات» ، وهو كتاب فخم صدر فى سنة ١٩٦٧ (طبعته الأحْدَث بتاريخ ١٩٧٣) محلى بكثير من الصور والخرائط والبيانات ، ألفه مؤرخ نابه ، هو الأستاذ جان ديلوموه بعنوان «حضارة الرينسانس» . يقول الأستاذ ريمون بلوك فى تقديمه لمؤلف تلميذه :

«. . . وربما كان من خاتمة هذه الدراسة فكرة المعاصرة (موديرنزم) وهى تظهر بأجلى بيان ، إذ يقدم الكتاب فى صورة رجاله وإنجازاتهم علائم تشبه بشكل عجيب سمات عصرنا الحاضر ، ترقيه الفرد ، وتميز شخصيته . تصحيح وضع المرأة ، وتقويم التربية بحيث تهدف إلى تكوين صادق للإنسان ، لا إلى إثقاله بحمل لا يجدى روحه المضيمة تحت وقر المعارف ، عناية بالجسم وتربيته الرياضية ، وبالتفكير الشخصى ، مدعمًا بالتجربة عن ماهية الإنسان ، وطبيعته ، وعقيدته ، إثارة حماسه للإبداع الفنى

والأدبى ، وللتحكم الآلى ، بالإضافة إلى دفع النخوة فيه نحو المجد الذى خلدت به اتجاهات ومنجزات اليونان والرومان ، كل ذلك مكتسب من القرن السادس عشر فى أوربا . ألا يبدو وكأنه فى الوقت ذاته بعض من اهتماماتنا الحديثة ؟» .

٣ – المال عند «اليانكى»

ويقول ويل ديورانت فى مجلده الكبير عن «الرينسانس» فى صفحة تجمع بين رجل الثقافة الكامل بالمعنى الأوربى «واليانكى» الصحيح بالمعنى الأميريكى :

«لم يكن كافيًا فى الرينسانس مجرد استحضار الحضارة الكلاسيكية . وإنما كان المال ، المال البورجوازى فياح الرائحة من مكاسب مديرى العموم الشطار والعمال ذوى الأجر الضئيل ، ومغامرات السفر إلى الشرق ، أو عبر جبال الألب لشراء بضاعة رخيصة فى موضعها ، لتباع بأسعار مجزية فى بلد التاجر . ثم كانت الحسابات الدقيقة ، ورءوس الأموال ، والقروض ، والعوائد والفوائد المتكتلة ، بحيث تترك فائضًا – بعد الصرف على حاجات الجسد ، ورشوة أعضاء «السناتو» ، واللجان المتخصصة ، والعشيقات – وهذا الفائض هو الذى يؤدى الثمن لميكلانجلو وتيسيانو . وبهذا تحول المال إلى جمال وكمال ، وتعطرت الثروة بعبير الفن .

المال أساس كل حضارة ، مال التجارة ، ورجال البنوك ،

والكنيسة ، هو الذى أوفى ثمن المخطوطات التى أعادت الحياة لعصر الكلاسيكيات . ليست المخطوطات هى التى تحرر العقل وتنقى الإحساس ، إنما هى «العلمانية» التى صاحبت ظهور الطبقة الوسطى ، كانت هى الجامعات واتساع المعارف ، والفلسفة ، وشحذ العقول بدراسة القانون ، وانفساح الفكر بإدراك أوسع وأصح للدنيا .

لماذا كان أهل الشمال الإيطالى من دون أوربا ، أول من أحسوا بنسمات الربيع الحضارى ؟ لأن العالم الرومانى لم يختف فى أرضهم تمامًا . فالمدن احتفظت بوضعها القديم ، مما استحضر ذاكرة الأهلين ، وهاهم أولئك يعودون إلى القانون الرومانى . وآثار الفن الكلاسيكى باقية فى فيرونا ومانتوا ، وپادوا ، وروما ، ومبنى «البانتيون» ما فتىء مكانًا للعبادة برغم مضى ١٤٠٠ عام على بنائه . ويكاد المرء يسمع فيه صوت سيسيرون ويوليوس قيصر ، فى جدال عام حول قضية «كانيلينا» . واللغة اللاتينية بقيت حية ، والإيطالية لهجة عامية منها ذات تنغيم . والشمال الإيطالى أكثر عمارًا بالمدن ، وبالصناعة ، ولم تسبق له معاناة الإقطاع بمعناه التيوتونى . وإنما أخضع النبلاء تبعًا لحاجات المدن ، ومعهم التجار بطبيعة الحال . وهؤلاء ذوو أقدام تلقاهم فى كل مكان من أسواق فرنسا حتى موانئ البحر الأسود . درجوا على معاشرة الروم والعرب ، والمصريين والفرس واليهود ، والهنود ، والصينيين . خفت لديهم حدة التعصب الدينى ، فتأثرت بهم الفئة المتعلمة ولم تنفر من أهل أديان غير ديانتهم .

يبدو أن الفكر العملى لأصحاب مهن المبادلة ، مضافة إلى التقاليد القومية ، وسجية فى الشعب وكبريائه ، حافظت على تمسك الإيطاليين بديانتهم على المذهب الكاثوليكى . ولم يَحُلْ تدينهم دون إعجابهم وكلفهم بحضارة أسلافهم القدامى ، على الرغم من وثنيتهم .

وساعد الإيطاليين على تحقيق الرخاء . المالُ الكثير الذى امتلأت به خزائن الفاتيكان بفضل إغداق المسيحيين فى أصقاع كثيرة على كنيستهم الأم : فكانت هذه الثروة تسمح لفائضها أن يجرى على الشعب الإيطالى الملتف حول كرسى بطرس الرسول . وكانت حكومة الفاتيكان تغضى عن خطايا الجسد . وفى معاملة الفلاسفة ، حتى ذوى نزعة الهرطقة ، كانت تتجاوز ، مادام نشاطهم لا يمس ممارسة الشعب لدينه .

كل هذا يفسر سبق إيطاليا بنحو مائة عام ، على بقية غرب أوربا فى الفن والفكر . وعندما خبا وهج «الرينسانس» الإيطالى فى القرن السادس عشر ، انتقلت حضارة «الإحياء» إلى فرنسا ، فألمانيا والأراضى الواطئة ، وإنجلترا ، وأسبانيا والبرتغال .

ومن الحق أن يوصف الرينسانس بأنه ليس حقبة من الزمن ولكنه «نظام فى الفكر» .

٤ – التمسك بالعقيدة فى مواجهة حضارة وثنية

أول ما يتصور القارئ ، حيال تحرك إيطاليا الوسطى – فلورنسا بالذات – إلى حضارة اليونان والرومان ، هو التعارض بين حضارة وثنية ، وبين شعب مسيحى كاثوليكى . وينطبق ذلك كافة على الأمم الأوربية التى نقلت عن فلورنسا وساهمت فى حضارة الرينسانس : فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا ، وبلاد الفلمنك ، وشبه جزيرة أيبريا .

وقبل كل هؤلاء وقفت الحضارة الإسلامية موقفاً مشابهاً فى مواجهة الإغريق ، ولكن المسلمين تجنبوا منها كل ما يتصل بالوثنية ، وأهمها الأدب الإغريقى شعرًا غنائيًا (لبريكيا) أو دراميًا أو ملاحم وقصصًا نثرية . وواضح أنهم عرفوا بأمره بدليل الإشارة إلى الكوميديا (القوموذيا) والتراجيديا ، ووصفت الأولى بشعر الهجاء ، والثانية بالمراثى . ولنتأمل قليلاً فى معنى هذا ، وقد أقبل مفكرو العرب فى نهضتهم على الفلسفة الإغريقية ، مترجمة إلى السريانية ، ومنها إلى العربية . والإجابة الميسرة هى أن الخيال فى المسرح الإغريقى ، وفى شعر الملاحم ، جعل من الآلهة شخصيات درامية أو ملحمية . وعند هوميروس تدخل الأرباب ، من ذكر وأنثى فى مجرى حرب طروادة ، وفى تجوال أودسيوس حول بحرنا القديم ، تدخلوا إلى درجة هبوطهم إلى شخصيات إنسانية بكل عيوبها وحسناتها ، إنما امتازوا عليها بالقدرة والقوة ، تأمل فى الدراما

الإغريقية وكسر شوكة الإنسان عندما يقدم على مقاومة الأرباب ، ولا تكاد تخرج مآسى التراجيديا عن هذا الصراع الجبار بين الإنسان ، والمقدر له بحكم الأرباب .

والمؤكد لدينا أن المسلمين عرفوا ، ولو بالاسم ، هوميروس . وأذكر جيدًا فى الكتب العربية أن مسلمًا ذهب لزيارة صديق فوجد عنده رجلاً يلقى شعرًا لهوميروس ، وآسف أن قد ضاعت من ذاكرتى تفاصيل هذه الواقعة . ويخيل إلىّ أن المسلمين من الأدباء والمفكرين كانوا بمجرد سرد أية خرافة إغريقية يتضح لهم أن مثل هذا الأدب الوثنى ينزل بمرتبة آلهته إلى أحط درجات البشر فى غيرتهم وغضبهم وغرامياتهم ، والرضوخ لشهواتهم . فالمسلم فى توحيده ، ونظمه الأخلاقية ، إذ يواجه وثنية وضيعة ، يقيم ستارًا سميكًا بين الكتابى والوثنى . وكان إعجابى شديداً بالعلامة الإسلامى الكبير البيرونى ، وهو فى ركاب السلطان محمود الغزنوى واقتحامه الهند ، جروء على دراسة كبيرة لديانة الهندوس ، فإن تساؤلنا عن قبول الأوربيين ، وإقبالهم على حضارة اليونان والرومان ، دون أن يشيحوا بوجوههم عن الناحية الدينية فى الأدب الكلاسيكى ، نتلقى عنه إجابة واضحة فى كتاب بوركارت عن الرينسانس ، وقد ترجم إلى كل اللغات الحية فى أوربا — وهاهى ذى : «لإيضاح هذا التعارض الخطير بين حضارة وثنية ، وبين شعب مسيحى ، نستفهم عن ثقافتهم العقلانية . فهؤلاء الرجال المحدثون نَشَئُوا مسيحيين متمسكين ومحافظين على ديانتهم ، شأن أسلافهم فى العصر الوسيط . غير أن

نضج الشخصية فى فلورنسا جعل الإنسان أشد إحساسًا بفرديته . ولقد تأثر الفلورنسيون فى مجموعهم بالسحر العجيب الذى استولى عليهم فى اكتشاف عالمهم القديم ، إلى درجة أن تثقيفهم الفكرى جعل منهم رجالاً جددًا تقدموا على الأوربيين الآخرين ، ولم ينكصوا عن ممارسة شعائر كنيستهم ، وهم يداولون كبشر بين ما قد يحدث لهم من الوقوع فريسة لشهواتهم وأنانيتهم ، وبين العودة إلى تقواهم يطلبون المغفرة .

ومن ناحية أخرى كان اتصال الإيطاليين تبعًا لتجارتهم ، بالبيزنطيين (الأرثوذكس) وبالمسلمين ، دافعًا إلى سماحة وانفساح أفق لا يضيقه عليهم إحساسهم بأنهم كاثوليك . وعندما أصبحت الحضارة الكلاسيكية مثلاً أعلى لهم بما اكتشفوا فيها من عظماء الرجال ، ومن مؤسسات ونظم رائعة ، قوى إدراكهم لهذا ، أن أصحاب تلك الحضارة القديمة هم بالذات من أسلافهم .

كان إيطاليو الوسط والشمال إذن هم أول الأوربيين المحدثين يناقشون فكرة الحرية بشدة ، وهم محكومون بنظام سياسى قوامه سيادة القوة على القانون ، وكان القدر يؤكد لهم سيطرة الشر . وقد خفف ذلك من إيمان البعض ، فاتجهوا إلى الرضا بحكم القدر ، مكتفين بإقامة شعائرهم ، مع تَعَلُّقٍ بالخرافات أيًا كان مصدرها ، إغريقيًا ، رومانيًا ، أو شرقيًا ، مثلهم فى هذا مثل أسلافهم ، أهل العصر الوسيط . كما آمنوا بالسحر ودعامة حياة الإنسان بحركة الكواكب مما يعرف «بالاسترولوجيا» (علم الفلك الأسطورى) .

ومن الخطأ ، وهم فى هذه الغيبة الروحية ، أن يتهموا بالوثنية ، فإن التعمق فى تحليل نفسيتهم يكشف لنا ، خلف ظاهرهم ، عن إحساس دينى قوى ، دون التمسك الضيق بفرائض مرسومة ، وكأن كل فرد منهم اتخذ لنفسه عقيدة خاصة ، وحرية فى التعرف على ما يلقى من مشاهد التحول الإنسانى الكبير ، ومن ظواهره احتفاؤهم بالإسلام . حدث هذا فى أعقاب الحروب الصليبية ، وقد امتدت الرحلات إلى الشرق تجارة وسياحة (كانت السياحة فى الأغلب حجيجًا مسيحيًا إلى مقدساتهم فى فلسطين ومصر) .

وحتى منذ القرن التاسع عشر يمكن أن نجد لدى الإيطاليين الاعتراف بالمُثل العليا عند المسلمين فى الكرم ، كما فى الإحساس بالكرامة ، والاعتداد بالنفس ، وهذا الشعور يتمثل لهم فى سلطان أو أمير أيوبى ، أو سلطان من مماليك مصر . وعندما يحتاجون إلى مثل شخص بعينه حائز لهذه السجايا فإنهم لابد واجدوه فى صلاح الدين يوسف .

ويجدر بنا العلم يقيناً بأن عناية الإيطاليين كانت بالفلسفة اليونانية لا بالوثنية ، مع ملاحظة أن الأدب الإغريقى ذاته يتضح فيه تغلب الفكر الفلسفى على الإيمان بالأوثان .

ومن معالجة دانتى ومعاصريه يبدو أن الفلسفة اليونانية بدأت تخرج فى إيطاليا «أبيقوريين» بمعنى نشر أفكار تتعارض مع العقيدة المسيحية . ولكن مؤلفات «أبيقور» ليست موجودة ، ولا معروفة .

وحتى الحضارة الإغريقية ذاتها انتهت بمجرد فكرة غامضة عن مذهب «أبيقور». نعم من الممكن التوصل إلى الأبيقورية ودراستها فى شعر «لوكريس»، وفى كتابات له، وفى نثر «سيسيرون» والتعرف منها على عالم اختفى منه الأرباب. والأغلب أن محاكم التفتيش استخدمت «الأبيقورية» تهمة لأعداء الكنيسة عندما كانت تلك المحاكم تفتقد علة لإدانتهم بالهرطقة.

ودانتى، شاعر العصر الوسيط فى نشيديه التاسع والعاشر من «الجحيم» يصور وادى القبور المفتوحة، تعلوها غلالات نيران عجيبة، والأرماس المكشوفة تصدر منها شكاوى أنامس، وصياحهم البائس، وهم من أهل القرن الثالث عشر، أدانتهم محاكم التفتيش، بعضهم كانوا هراطقة فعلاً، والبعض الآخر أحرقوا بتهمة «الأبيقورية»، ذنبهم أمام المحكمة تشمله مجموعة من الآراء تلخص أن الروح تفنى مع الجسد. وأهم ما يعنى به رجال الكنيسة هو أن مثل هذه الفكرة تقضى على إمكان تدخلهم فى قدر الإنسان بعد وفاته.

وفى القرن الخامس عشر انتشرت الكتابات الكلاسيكية، واطلع المثقفون على آثار الإغريق الأدبية ولو فى ترجمات لاتينية.

«والملاحظ جيدًا أن بعض من عرفوا كأشد المتحمسين لهذا التحرك الثقافى، كانوا من أصدق المتمسكين بقواعد دينهم إلى درجة اعتبارهم من الأتقياء».

انتهت هذه المختارات من كتاب جاكوب بوركارت ، وهو الأقرب إلى نظرتنا فيما أبعد الحضارة الإسلامية عن أدب الإغريق ، عندما يقول المؤرخ السويسرى : «ويجدر بنا العلم يقيناً أن عناية الإيطاليين كانت بالفلسفة اليونانية ، لا بالوثنية» .

٥ – ليوناردو دافنشى

يقول الناقد الفنى ليونللو ڤنتورى فى مؤلفه القيم ، وعنوانه (كيف نفهم التصوير من «چيوتو» حتى مارك شاجال» : «لم يعد الإيطاليون بعد سان فرانسيس الأسّيزى (أى من القرن الثالث عشر) يعنون باللاهوت ، لأنهم أولعوا بحب الأرض وما عليها ، حبًّا أخذ عليهم المسالك ، حتى لقد نقلت أحاسيسهم بحياة المسيح وأعماله إلى حياة الإنسان اليومية . وهذا ما أنزل فى قلب الناس من مطالع القرن الخامس عشر ، إيمانًا جديدًا بالإنسان ، وأضحى عندهم مركز الخليقة ، وسرتها» .

واختار ڤنتورى مثاله من ليوناردو دافنشى : صورة «العذراء بين الصخور» فقال : «أشخاص ليوناردو» لا ينفصلون عن المناظر الطبيعية المحيطة بهم ، فحقق الموافقة بين الصورة الإنسانية والطبيعية ، بل وحدهما . أما بيرو ديلاّ فرنشيسكا ، وماذاتشيو وجيوتو فقد زحموا مساحتهم بصور الناس ، فى حين أن ليوناردو عنى بالطبيعة حول الأشخاص ، فأنطق الطبيعة لتوحى بالإنسان ، وروح

الإنسان . . . كان ليوناردو «الأومو أنيفرسالى» (الإنسان العالمى) بمعناه الكامل ، مصورًا ونحاتًا ، ومعماريًّا ، وكاتبًا .

«ضرب بسهم فى شتى العلوم والمعارف ، كتاباته توضح اهتمامه بالألوان . وهو ما غدا شيئًا معروفًا مدروسًا اليوم ، وكان مجهولاً من قبل . فعندما صور ، فرض على توافق الألوان أن تجتمع فى مزيج واحد ، وهذا ما يعرف اصطلاحًا «بأسفيوماتوا لكيارو سكورو» وكان كَلِفًا بما يكاد يؤلف لونًا واحدًا (مونوكروم) .

«تابع ليوناردو بنات خياله إلى أبعد من الحقيقة وأرفع ، فاشرأبت روحه نحو مثل عليا فى الجمال كأرق ما يكون الجمال وألطفه ، وهو جمال يكاد يخرج من الواقع إلى التجريد . وفى هذا يقول ليوناردو «أراقب معارج المدينة عندما يشرع المساء فى إرخاء سدوله ، وبخاصة إن كانت السماء غائمة . ما أرق ما ترى ، وما أهدأ ، وما أحلى . . فالضوء الساطع يبرز كل شىء عراء ، والليل الحالك يعشى فيه البصر ، فلا يرى شيئًا ، وخير الأمور الوسط» .

ويمكن أن أنتقل بك الآن إلى موناليزا ، زوجة السنيور فرنشسكو ديل جوكوندا ، من أهل فلورنسا فى عصر الرينسانس ، وقد ماتت الفاتنة منذ خمسمائة عام ، وبقيت صورتها عروسًا مجلوة على لوحة من خشب الجوز عزيزة على كل فؤاد يخفق بحب الفن .

ما معنى التجمع دائمًا لزوار قصر اللّوفر أمام الجيوكوندا ؟ أهى

أعظم لوحة فى الوجود ؟ أم هى أخطر عمل فنى لعصر النهضة ؟

أمَّا أنها صورة عظيمة ، ومكانتها فى الصدارة ، فما فى هذا شك . وأمَّا أن ليوناردو دافنشى من أكبر فنانى الرينسانس ، وواحد من عبقريات القرون ، فلا تحسبن أنّ أحدًا يقول بغير هذا . بيد أن ذلك لا يمكن أن يفسر وحده استئثار صورة موناليزا وحدها بلب الجماهير ، إلى الحد المشاهد دائمًا فى قاعات اللوفر ، وإلى ما نالته من حظوة لدى الملايين منذ نحو ربع قرن مضى . وعندى أن أسباب هذه الشعبية المكدسة لصورة واحدة من ليوناردو ترجع إلى عوامل مركزة أولاً وآخرًا على قيمتها الذاتية كعمل شامخ ، ولكنها تمتُّ كذلك إلى ظروف خارجة عنها ، تتعلق بليوناردو نفسه وما تركه من آثار .

لقد عاش هذا الرجل حياة مشتتة عجيبة ، تابع فيها نشاط رجل العِلْم المخترع ، الكاتب والفنان ، بشكل مشوش ، انتهى به إلى قلة من أعمال فنية أورثها للعالم . هذا إلى ما كان من أثر ولعه بالتجارب فى اختراع الألوان ، وخلطها ، والبحث عن مواد أخرى تشارك الزيت فى أثره . فكان من نتيجة وَلَعِهِ هذا أنْ تعرضت لوحاته للفناء ، أو حالت ، لولا عناية الأخصائيين بالحفاظ عليها .

أعظَم (بمعنى أكبر) أعمال ليوناردو صورة «العشاء الأخير» التى نفذها للآباء الدومنيكان فى دير «سانتا ماريا ديلاّ جراسيا» فى ميلانو (١٤٩٥ – ١٤٩٨) . ولولا أن اللوفر يملك لوحةً جيدة نقلت عن الصورة «الآلافرسكو» لتعذر اليوم على الرائى أن يتبين سوى القليل

من جمال الصورة الحائطية الأصيلة ، وهى تمثل السيد المسيح يتناول عشاءه الأخير مع حواريه . وقد اختار دافنشى اللحظة التى نزل فيها قول المسيح نزول العاصفة على الحواريين ، وهو يخبرهم أن واحدًا من بينهم سيغدر به : «ولما كان المساء أتكأ مع الاثنى عشر حواريًّا ، وفيما هم يأكلون قال : الحق أقول لكم عن واحد منكم يسلمنى . فحزنوا جدًّا ، وبدأ كل واحد منهم يقول : هل أنا يا رب ؟ (إنجيل متّى ٢٦) .

صور ليوناردو مشرقة بالحب ، والرهبة ، فإذا تداولها الحزن فجأة بالاستنكار ، كيف يظهر وجه يهوذا الإسخريوطى ، وقلبه يضطرم بالحقد ونيته مبيتة على الخيانة ؟

كان رئيس الدير الدومنيكانى رجلاً فَدْمًا لا يعرف للفن حرمة ، ولا الفنان مقامًا . فكلما شاهد ليوناردو يضيع نصف نهاره مسترسلاً فى تأملاته ، منقطعاً عن «الشغل» استحثه رئيس الدير وعنفه على «تنبلته» . ومن يدرى ، فربما قال له ذات مرة : «كلكم يا فنانين صنف واحد ، عاوزين نطعمكم لوجه الله» . (لا تعجب إنْ كان شيئًا من هذا قد حدث . فأمامك «الشلوط» الذى أصاب مؤخرة الفتى فولفجانج أماديوس موزار من رئيس ديوان الأمير الأسقف حاكم ولاية سالزبورج !) . إنما المؤكد أن رئيس دير سانتا ماريا ديلاّ جراسيا ، لا فرق عنده بين الفنان والعجان أو الفلاح يعزق الأرض .

ذهب رئيس الدير يشكو ليوناردو إلى أمير ميلانو الدوق لودفيكو سفورزا (وكنيته «المغربى» إل مورو).

استدعى الأمير مصوره المحبوب، لا ليؤنبه، بل ليتعرف بلباقة عن مدى ما تم من الفريسكو وما حققه فيه. إذ لم يغب الأمر على أذكى الرجال فى عصره. فاضطر ليوناردو أن يصارح الدوق سفورزا «المورو» بجلية الخبر، فيتحدث إليه عن فنه، وعن أن رجل الفن يحقق أكثر ما يحقق فى فنه عندما لا يظهر عليه أنه يؤدى عملاً ما. وأن ما بقى حتى تكتمل الصورة هو وجه السيد المسيح. وقد انتهى دافنشى إلى الإقلاع عن البحث فى هذه الدنيا عمّا يحقق له تصوير ذلك الوجه العلوى... ثم وجه يهوذا الإسخريوطى، وقد ضاقت السبل بالفنان نحو تصوير سحنة تُمَثِّلُ الخيانة والغدر فى أحط وأفظع صورها.

واهتدى أخيرًا إلى أنَّ أصلح الوجوه التى رآها نموذجًا لسحنة الغادر، هو سحنة الراهب الدومنيكانى، رئيس الدير الثقيل، أى أسقف دير سانتا ماريا ديلـلا جراسيا.

فضحك الدوق سفورزا ملء أشداقه من هذه الفكرة، ووافقه عليها جزءًا وفاقًا لذلك الراهب على جهالته، وسماجته.

تلك هى الصورة التى وفقت إليها ديباجة لكتابى هذا، وسوف يتعرف فيه القارئ على من اختاره من بين شخصيات «الرينسانس»

مفكرين وفنانين ورجال سياسة أو دين ، كانوا صدارة ذوى الأثر فى الانفتاح الباهر الذى أعتبره أهم وأصدق مصدر لحضارة أوربا ، والعالم طرًّا . والذى يعنينى فى هذا الكتاب أن أحدِّدَ بؤرتى على فلورنسا ، فهى عندى كما هى عند المؤرخين ، مهاد الحضارة التى نعيش فى خيرها ، وشرها اليوم . ويتوقف مستقبلها بعد ما حققه العلم الحديث من روائع خطيرة ، يتوقف مستقبلها على تغليب الخير بالسلام ، فهو ديدن الحضارة ، أما الشر ، فهو الحرب ، شيطانها الرجيم .

٦ – تصويب لازم

قد يحسب القارئ بعد كل هذه الصفحات أن « عصر الإحياء » كان جنة أرضية ، ولم يكن كذلك . والتاريخ الحى الصادق يكره الاستغفال . إنما حساب الرينسانس ، فى كتاب يمينه ، هو تحويله لتيار التاريخ من الضيق والتزمت إلى الانفتاح . ولن يختلف فى سلوكه عن أنه كان عصر جرائم بعض رجاله ونسائه . فنحن هنا لا نؤرخ لعصر أنبياء ، حتى نحلم بجنة الميعاد .

والرينسانس يمتاز بمصاحبة الخير والشر ، حتى لا تكاد تصدق أن اجتماعهما فى إبانة كان ظاهرة مميزة . فهو عصر صادق الإيمان والعقيدة فى صورة الراهب « سافونارولا » ، كما هو عصر الجرائم فى أسرة بورجيا السفّاحة ، وعصر الكاتب الأفّاق « الأريتان » (بترو

أريتينو) ذى اللسان القاذع الساخر الذى انتهى بنفيه ، فذهب إلى روما يحتمى بالبابا ليون العاشر إلى أن نشر أشعاره البذيئة فى فحشها ، فطرده ، وانتهى به الأمر إلى البندقية حيث ألف كوميدياته الإباحية الفاجرة . . . كان كاتبًا موهوبًا ، وإن كان حُوشيًّا ، بتلقى عون من يخشون لسانه الحامى ، كما كان شديد الإحساس بفن التصوير ، وصديقًا للمصور تسيانو ، عظيم مصورى فينسيا .

الرينسانس كان بحرًا من المتناقضات ، من البساطة إلى التعقيد ، ومن الطهارة وحب الجمال إلى الشهية المنحرفة . ولنشبهه هنا بموقف الفرد ، أميرًا كان أو حاكمًا يجمع بين تحقيق الرخاء والتقدم لشعبة وبين سلوكه الأنانى المملوء بالقسوة والعنف والتكالب على المال .

وعدالة التقدير هنا ، فليس الأمر مختصًا بأفراد ، ولكن بمجتمع له أثر باق فى التاريخ العام . فقد أقبل أهل أوربا - إيطاليين وأسبان - فرنسيين وفلمنكيين وبريطانيين وألمان - على السير فى طريق الرينسانس الواعى لكل ما فى الإنسانية من رجاجة عقل ، وإحساس بالجمال ، وتقدير للفكر ، والانفتاح على العالم .

عصر النهضة أو الإحياء كما نصفه فى لغتنا ، حقق هذا أولاً باتجاه عكسى نحو الماضى البعيد ، وأى ماض : حضارة الإغريق والرومان . كان هذا فى الحق فتحًا على المستقبل ، لأن ما رآه من آثار اليونان القديمة عراقة فى الفكر والفن والديموقراطية ، ومن آثار الرومان فى العمارة والإدارة والقانون أعطته نفحة حضارية عجيبة .

انظر إلى متاحف أوربا وأمريكا . لقد نهبت آثار الفن الإغريق والرومانى ، قبل وبعد أن نهبت آثار الحضارة الفرعونية ، وغيرها من حضارات الشرق الأدنى والأبعد . ألم تكن هذه الشراهة فى الاتجاه إلى تحقيق الإنسان الأرقى هى التى نادت منذ القرن السادس عشر بأن ميكل أنجلو هو أعظم فنان فى كل العصور ؟ ثم تأمل فيما تحقق بفضل الرينسانس من اكتشاف العالم شرقًا وغربًا ، ومن تحرير الفكر وإصلاح العقيدة . عد دائمًا إلى المتاحف والمكتبات فى أوربا ، لتدرك ما أدى ذلك العصر من تنوير . . هو العصر الذى شجع على استخراج بعض اللغات الأوربية من ربقة اللاتينية ، بترقية لغة العامة . فصاغها الشعراء والكتّاب العظام إلى ما نعرفه من جمال الإيطالية والأسبانية ، ودقة اللغة الفرنسية . بل استطاع الرينسانس التقدم بما نسميه التكنولوجيا ، حتى وهب الإنسان الغربى القدرة على الانفتاح والاكتشاف عبر الإقيانوس ، وأن يستخرج من الحديد « الزهر » والصلب ، وأن يخترع الأسلحة النارية ، ويضبط الأوقات بمحركات دقيقة وينسخ الكتب بالمطابع ، وأول من عرف « الكمبيالات » وأنشأ التأمينات البحرية .

هو الذى أخرج أهل العصر الوسيط من الظلام إلى النور . وخلص الفرد من ضغوط الجماعة . وهذا الوضع تدارسه المؤرخ السويسرى من مدينة بازل (بال) چاكوب بوركارت ، صاحب كتاب « الحضارة فى إيطاليا » .

كان شعب العصر الوسيط يركز التفكير فى ذنوبه ، مهددًا دائمًا

بالشيطان الرجيم ، وبحركة الأفلاك ، ويرهب عذاب الجحيم . وجاء الرينسانس يطالب بشيء من العلمانية ، وأن تتفتح الديانة على الدنيا وما بها من جمال .

ولا يصح اتهام عصر الإحياء باللادينية . فالحق أن المسيحية أحست بالحاجة إلى التجديد . متفتحة للحقائق اليومية ، فى يسر لاعسر . فيشعر الناس بحق أجسادهم ، وإعجابهم بالجمال الحى ، أو فى صوره ، وبهذا لم يعد صعبًا على أهل الفن أن يضيفوا إلى أعمالهم التى تستوحى الكتاب المقدس قديمه وجديده ، صور ما يتخيلون من أساطير الأقدمين .

قال لورنسو ڤالاّ أستاذ الجامعة فى رسالة إلى أحد الزهاد «المسيحية ليست بالضرورة زهدًا ولا نسكًا . وأكتفى بالتوكيد أنك لست أفضل من الآخرين . فهم يَعْدِ لُونَكَ فى الفضيلة ، يمارسون بها حياتهم الناشطة» واشتهر الأستاذ لورنسو ڤالاّ بدفاعه عن اللغة اللاتينية (١٤٠٧ - ١٤٥٧ م) ، وهو الذى أثبت زيف الوثيقة المنسوبة إلى الإمبراطور قسطنطين (القرن الرابع) فكتب سنة ١٤٤٠ نقدًا عنيفًا على ما وصف بالعَطِيَّة (الدوناسيون) . وأكد أن هذه معروفة بزيفها منذ القرن الثامن : نسب فيها إلى أول معتنق المسيحية من أباطرة الرومان أنه «منح» البابا حقوق الإمبراطور . وظل الشك يحوم حولها ، إلى أن حقق زورها لورنسو ڤالاّ .

وقال المؤرخ الفنان ماتّيو بالميرى فى كتابه عن الحياة المدنية

(١٤٣٥ - ١٤٤٠) : « يمكن الآن حقًّا لكل مفكر أن يشكر العناية الإلهية التى قضت بأن يولد فى العصر الجديد ، المفعم بالأمل الموعود ، والذى يشرفه رهط نبيل الروح ، أكثر عددًا من كل ما عرفته الدنيا فى الألف العام المنقضية » .

وقال ماكيافيلّى « فى كل آن تستنبط آراء وفنون جديدة ، تصاغ لهما كلمات جديدة . والقرن الخامس عشر أخصب جدة فى المعارف الجغرافية والعقلانية والفنية ، تعبر عنها مصطلحات فى عالم الفن ، والتعليم ، والتاريخ . وإذا كانت التسمية فى العلوم تجىء متأخرة حتى نهاية فهم ووعى الظاهرة المراد وضع مصطلح لها ، فقد طال الأمد فى وضع كلمة « الرينسانس » لتدل باختصار خادع على التحرك الكبير ، من نشاط التجديد . بل سعادة فى هذه الحقبة ، التى أملى عليها موقفها حيال الماضى . وكانت الفكرة سابقة على المصطلح ، حتى قبل عصره . فإن الأدب والفن والديانة ، على يد المفكرين والكتّاب ، والمصورين والمعماريين ، منذ عصر پترارك وبوكاتشيو . تنبهوا إلى الروابط التى تصلهم بحضارة الإغريق والرومان . ألم يكتب پترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) فى ملحمته « إفريقيا » عقب زيارته الأولى لروما :

« إنَّ عصرًا أفضل قد تجهز لكم ، إنّ قدر أن يمتد بكم العمر لزمن طويل بعد وفاتى ، حسبما آمل وأرجو ، وأن نومة النسيان هذه لن تستمر دائمًا . فسوف يتجه أحفادنا إلى الروعة فى ضياء الماضى حينما ينقشع الظلام . وعندما اكتشف پترارك عام ١٣٤٥ رسائل

سيسيرون فى دار كتب فيرونا ، أخذ فى نسخها على الرغم من مرضه .

ومع إعجاب پترارك بالإغريق فإن جهله باليونانية لم يشعره بمبادلة حميمة ، إلاّ بعد أن تلقى ترجمة «الإلياذة» إلى اللاتينية .

وقال «بوكاتشيو» (١٣١٣ - ١٣٧٥) عن المصور چيوتو إنه أعاد الضوء إلى الفن ، وكان قد انطفأ منذ مئات السنين ، من جراء الأخطاء التى اقترفها المصورون لإرضاء العوام ، بدل إمتاع ذكاء ذوى النهى .

وتواصل مديح القدماء ونما ، حتى الفنان المؤرخ ڤازارى ، ومن جاء بعده . وكان فى هذا . «أس» نظرية التجديد . وفى القرن السادس عشر استعمل مصطلح (الرينسانس) بمعنى التجديد فى الفن .

وجاء المعمارى أنطونيو فيلاريتى (١٤٠٠ - ١٤٦٩) ليقول على لسان عاشق للفنون : «يبدو لى أننى أرى من جديد الأسلوب الرفيع الذى قام من قديم الزمان فى روما ، وفى مصر ، حسبما قرأت عن هذه» .

وفى فلورنسا بدأت العمارة الموسومة بوصف «فن الأقدمين» . فإذا كان المصورون أسبق من المعماريين ، فإن الكتّاب بآمالهم ، ومؤلفاتهم حظوا بالسبق على هؤلاء وأولئك ، فلا ريب فى أن الفنون

والآداب تحورت حوالى منتصف القرن ، وهكذا يمكن القول بأن العصر الذى تنبأ به پترارك جاء محققًا لحدسه بعد جيلين من وفاته سنة ١٣٧٤ .